فصل في عمارة بيت المقدس وقصة العزير[١]

قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[البقرة: ٢٥٩].

واختلفوا في هذا المارِّ على أقوال:

أحدها: أنه إرْمِيَا، قال جدي في «فضائل القدس»: روى عبد الصمد بن معقل عن وهب بن منبه وزاد غيره قال: أقام إِرْمِيا بعد خراب البيت بأرض مصر مدة، فأوحى الله إليه: أن الْحَقْ بأرض إيلياء، فإن هذه ليست لك بأرض، فقام فركب حماره وأخذ معه سلةً من عنب وسقاءً جديداً فيه ماء وخرج[٢].

وفي رواية: فأوحى الله إليه: يا إرميا الْحَقْ بأرض الشام، فإن هذه الأرض ليست للأنبياء بمقام، وإني عامر بيت المقدس، فخرج على حمار ومعه سلة فيها عنب وتين وسقاء من عصير. فلما بدا له شخصُ بيت المقدس وما حوله من القرى نظر إلى خرابٍ لا يوصف، فقال: أَنَّى يُحيي هذه الله بعد موتها، ونزل عن حماره وربطه، وألقى الله عليه السُّباتَ ونزع روحه، فنام مئة عام، فلما انقضت سبعون منها أرسل الله مَلَكاً إلى مَلِكٍ من ملوك فارس عظيم. واختلفوا في اسمه فقال وهب: كوشك[٣]، وقال أبو جعفر الطبري: بشتاسِب[٤]، وقال مجاهد: كورش، فقال له المَلَك: إن اللهَ يأمُرُكَ أن تَنْفِرَ بقومك فتعمر بيت المقدس حتى يعود أعمرَ ما كان، فانتدب الملك ألف قَهرَمان[٥]، مع كلِّ قهْرَمان ثلاثة آلاف عامل، فشرع في عمارته، فتمَّ في ثلاثين سنة. وجمع كوشك من كان إليه في البلاد من بني إسرائيل، فكثروا وعادوا أحسن ما كانوا. ولما مضى من منام إرْمِيا سبعون سنة دبَّت الروح في عينيه، فجعل ينظر إليهم وهم يبنون

---

(١) من هنا بدأت نسخة كوبريللي، والتي رمزنا لها بـ(ك) وعليها الاعتماد، وانظر قصته في «عرائس المجالس» ص ٣٤٥، و«المنتظم» ١/ ٤١١، و«البداية والنهاية» ٢/ ٣٨٠، و«تفسير الطبري» ٥/ ٤٣٨، والنكت والعيون ١/ ٣٣١، وتفسير الثعلبي ٢/ ٢٤٢، وزاد المسير ١/ ٣٠٨، و«تفسير ابن كثير» ١/ ٤١٠.

(٢) «فضائل القدس» ص ١٠٧.

(٣) في (ك): نوشك، وفي «تفسير الطبري» ٤/ ٥٩٤، و«عرائس المجالس»: يوشك.

(٤) «تاريخ الطبري» ١/ ٥٤٠.

(٥) القَهْرَمان: أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه.

فلما انقضت المئة سنة أحياه الله، فقام ينظر إلى عظام حماره وهي بيض تبرق، فسمع صوتاً من السماء: أيتها العظام المتمزقة إنَّ الله يأمرك أن تجتمعي، فاجتمعت واكتست لحماً وجلداً، وقام الحمار ينهق، ونودي من السماء: يا إرْمِيا، كم لبثت؟ قال: يوماً أو بعضَ يوم، وكان قد مات وقت الضحى وعاش قبل مغيب الشمس، فالتفت فرأى بقية الشمس، فقال: أو بعض يوم، فكان يظن أنها قد غربت، فلهذا قال: يوماً، فلما رآها لم تغرب قال كذلك، فقيل: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾[البقرة: ٢٥٩] أي: لم يتغيَّر، فلم يحمض العِنَب والتين ولم يتغيَّر العصير. وقال الجوهري: التسنُّهُ: التَّكَرُّجُ الذي يقع على الطعام والشراب والخبز[١]. ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾[البقرة: ٢٥٩] كيف تمزَّقت أوصاله فأعادها الله.

فإن قيل: فلم بلي الحمار ولم يتغيَّر الشراب والطعام، ولم يحمض العصير، قلنا: لو تغيَّر الطعام لتلاشى وانعدم ولم يبق له أثر، وأما الحمار فاستدلَّ بإحيائه على إحياء بيت المقدس وعوده إلى ما كان عليه.

فإن قيل: فهلا قال: وانظر إلى نفسك، ولم يقل: إلى حمارك، قلنا: معناه: انظر إلى حمارك الذي ربطته واقفاً على هيئته.

﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾[البقرة: ٢٥٩] أي: عبرة ودلالة على البعث. قال ابن عباس: مات وهو ابن أربعين سنة، وقال أبو جعفر الطبري: إنَّ إرْمِيا لبث في نومه إلى أن هلك بُخْتَ نَصَّر، وكان قد عاش ثلاث مئة سنة ـ يعني بُخْتَ نَصَّر ـ وبعث الله عليه بعوضةً فقتلته، وهلك المَلِك الذي كان قبله وهو لُهراسب، وقام ولده بشتاسب، فبلغه خراب البيت المقدس، فجمع بني إسرائيل وملَّك عليهم رجلاً من آل داود عليه السلام وأمره بعمارة بيت المقدس أحسن ما كان، فعمره، وردَّ الله روح إرميا إليه.

وقال وهب: عُمِّرَ إرميا، وهو الذي يُرى في الفلوات، ويقال إنه الخضر[٢].

والثاني: أنَّ الذي مرَّ على بيت المقدس العُزَير عليه السلام، وعليه الأكثرون، وهو

(١) «الصحاح» (سنه)، وتكرج: فسد.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٥٤٤، و«تفسير الطبري» ٤/ ٥٩٣.

قول عليٍّ عليه السلام وقتادة وعكرمة والضحَّاك والسُّدي في آخرين، وحكاه جدي في «فضائل القدس» عن ابن عباس[١].

وروى ناجية بن كعب عن عليٍّ عليه السلام قال: لما فعل بُخْتَ نَصَّر ببيت المقدس ما فعل، وقَدِم بالسبي إلى بَابِل، كان فيهم عُزَير، وكان من علماء بني إسرائيل، فلما عاد بقاياهم إلى الشام عاد عُزَير معهم فمرَّ على بيت المقدس وهو شابٌّ راكب على حمار، فأَماته الله مئة عام.

وقال وهب وابن عباس: لما أحياه الله أتى منزله فأنكر المنازل، وهناك عجوز عمياء مقعدة قد أتت عليها مئة وعشرون سنة، وكانت تعرفه قبل ذلك، فقال لها عُزَير: هذا منزل عُزَير؟ فبكت وقالت: نعم ما سمعنا أحداً يذكر عُزَيراً منذ مئة سنة، وقد نسيته الناس، فقال: أنا عُزَير أماتني الله مئة عام ثم بعثني، فقالت: كان عُزَير مستجاب الدعوة فادعُ لي حتى يردَّ الله عليَّ بصري، فدعا لها ومسحَ على عينيها وجسدها فأبصرت وقامت تمشي، فكأنما نشطت من عقال، ونادت في بني إسرائيل: إن الله قد أحيا عُزَيراً، وهناك ابنٌ لعزير قد أتت عليه مئة وعشرون سنة، وبنوه شيوخ، فقال ابنه: كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه، فكشف ثوبه فلاحت، فتعانقا وبكيا[٢].

وذكر الثعلبي أنهم كذَّبوه، فقرأ لهم التوراة على ظهر قلبه، وكانت التوراة قد فُقِدت، فقال بعضهم: حدثني أبي عن جدي أنَّ التوراة دفنت يوم سُبينا في خابية في كرم فلان، فنبشوا الكرم وأخرجوها وعارضوها بما أملى عُزَير فما اختلفا في حرف واحد، فحينئذٍ قالوا: عُزَير ابن الله[٣].

والثالث: أنَّ الذي مرَّ على القرية لا إرْمِيا ولا عُزَير بل رجل كافر بالبعث، قاله مجاهد، والأول أصح.

واختلفوا في القرية: عامة العلماء أنها بيت المقدس، وقيل: قرية العنب غربي بيت

(١) «فضائل القدس» ص ١٠٥.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٤٧.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٤٩.

المقدس على فرسخين، قاله مقاتل.

وقال الرَّبيع: هي دَاوَرْدان التي خرج منها الألوف، وقيل: دير هِزقِل[١]، والأول أصح.

والخاوية: الساقطة بعضها على بعض، والعروش: السقوف، ومعنى ﴿أَنَّىٰ﴾ أي: كيف ومتى، وليس المراد به الشكُّ بل التعجُّب ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ استفهام عن مبلغ العدد، وعامة القراء على إظهار لبثت لأنه أظهر[٢].

فإن قيل: فقد كان عُزَير نبياً فلمَ لم يُذْكَر في القرآن باسمه، فالجواب من وجوه:

أحدها: أنَّ الله ذكر قصص جماعة في القرآن من الأنبياء، ولمْ يذكر أساميهم كشَعيا ويوشَع وإرْمِيا ونبيِّ أصحاب الرسِّ وعُزَير في آخرين لحكمة رآها.

والثاني: لأنّ عزيراً قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ﴾ وفيه نوع شك وإن كان تعجُّباً.

والثالث: لأنه سأل ربه عن القَدَر فأوحى الله إليه: سألتني عن غامض علمي فعاقبتك بأن لا أذكر اسمك مع الأنبياء، قاله داود بن أبي هِند.

فإن قيل: وما الذي سأل ربه؟ قلنا: روى الضحاك عن ابن عباس قال: قال عُزَير: يا رب، لو شئتَ أن تطاع لأُطعتَ، ولو شئتَ أن لا تُعصى لما عُصِيتَ، وأنت تحبُّ أن تطاع، ومع ذلك فأنت تُعْصَى. فأوحى الله إليه: أنا لا أُسْأَلُ عما أفعل وهم يُسألون. فقال: يا إلهي، خلقت الشر وقدَّرته فلمَ تعاقبُ عليه؟ فأوحى الله إليه: أعرضْ عن هذا، فلم يَنْزجِر، فقال الله: يا عُزَير، أتريدُ أنْ تسألَنَي عن أصل علمي؟ لأمحوَنَّ اسمك من ديوان النبوَّة.

وقال ابن عباس: لم يَكن في أولاد الأنبياء مثل عُزَير، ولا أَحْكَم للتوراة منه، فعوقب لما سأَل عن القَدَر.

---

(١) في (ك) و(ب): هرقل، والمثبت من (ط) وهو الصواب، قال ياقوت: بكسر أوله وزاي معجمة ساكنة وقاف مكسورة، وأصله حزقيل، ثم نقله إلى هزقل.

(٢) وهو إظهار التاء وعدم إدغامها في الثاء، وبالإظهار قرأ ابن كثير ونافع وعاصم، وبالإدغام قرأ أبو عمر وابن عامر وحمزة والكسائي، فقالوا: «لبثُّ». انظر «الحجة للقراء السبعة» ٢/ ٣٦٧، و«تفسير القرطبي» ٣/ ٢٩١.

قلت: وذكر الحافظ في «تاريخ دمشق» وقال: جاء في الأثر أنَّ قبر عُزَير بدمشق.

قال: وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لا أَدْري أَكَان عُزَيرٌ نبيّاً أمْ لا».

قال: وقال أنس: جاء عُزَير إلى باب موسى بن عِمران بعدما محي اسمه من ديوان النبوَّة فحجب، فرجع وهو يقول مئة موتة أهونُ من ذلٍّ ساعة[١].

قلت: إن كان جاء إلى باب موسى في النَّوم فيمكن، أما في اليقظة فبينهما أكثر من ألف سنة، فلله درُّ التاريخ.

وقال يحيى بن أبي كَثِير: دبَّر عُزَير أمرَ بني إسرائيل بعدما عاش أربعين سنة، فكمُل له ثمانون ومئة سنة، ثم مات.

وقال الهيثم بن عدي: وفي أيام عُزَير كان يَزْدَجِرْد بن بَهرام الملقب بالأثيم، وهو الذي بنى الخَوَرْنَقَ[٢] والسَّدِير[٣]، وقيل: إنما كان في أيام إرمْيَا.

وقال ابن الكلبي: وفي أيام عُزَير كان يَزْدَجِرْد بن بَهرام، وزال مُلْك الفرس عن الشام وصار إلى الروم، وكان مَلَك مُلْك فارس بشتاسب وقيل: أشتاسب بن لهراسب، وكان لما قتل شعيا، قد آل أمر الشام والقدس إليه.

قال جدي في «فضائل القدس»؛ وكان بُخْت نَصَّر عامله على ذلك كله[٤]. وفي أيام عُزَير ظهر زَرادِشت المجوسي لما نذكر.

وحكى جدِّي في «فضائل بيت المقدس» عن وهب، قال: كان عُزَير من السبايا التي سباها بُخْت نَصَّر من القدس، فرجع إلى الشام، وبكى على فقد التوراة فنبِّىء، وكان بُخْت نَصَّر قد أحرق التوراة فتلاها عُزَير من حفظه فافتتنوا به، وقالوا: هو ابن الله، ثم

---

(١) «تاريخ دمشق» ٤٠/ ٣١٧، ٣٣٧. قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٣٨٤ بعد إيراد هذه الأقوال: وهذا ضعيف ومنقطع ومنكر.

(٢) الخَوَرْنَقُ: هو قصرٌ في الحيرة أمر ببنائه النعمان بن امرىء القيس وهو فارسي، ومعناه موضع الأكل والشرب. انظر «معجم البلدان» ٢/ ٤٠١، و«المعرب» ص ١٧٤.

(٣) السَّدير: قصرٌ، وهو معرَّب، وأصله بالفارسية سِهْ دله، أي فيه قباب مُدَاخَلةٌ. انظر «الصحاح» (سَدَر)، و«المعرَّب» ص ٢٣٥، و«معجم البلدان» ٣/ ٢٠١.

(٤) «فضائل القدس» ص ١٠١.

دفعها إلى تلميذ له اسمه ميخائيل، فبدَّلها وزاد فيها ونقص منها، والدليلُ عليه أن فيها أحاديث أسفار موسى وموته وما جرى له، وليس هذا من كلام الله تعالى.

وقال جدي في «فضائل بيت المقدس»، أنبأنا أبو المعمر المبارك بن أحمد الأنصاري بإسناده عن حُذيفة بن اليَمان عن النبي ﷺ قال: «غَزَا طاطري بن اسمانوس بني إسرائيل فَسَباهم وسَبَى حُليَّ بيتِ المقدس وأَحرقَهُ بالنَّارِ، وحمَّل منه في البحر ألفاً وتسع مئة سفينة حُليّاً، وأورده رُوْمِيةَ». قال حذيفة: فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لَيُخرِجَنَّ المهدِيُّ ذلك حتى يؤدِّيه إلى بيت المقدس».

وقال جدي رحمه الله أيضاً: أنبأنا محمد بن ناصر بإسناده عن سعيد بن عبد العزيز قال: أخربت أهل رُومِيَة بيت المقدس واتخذته مَزْبَلة، حتى كانت المرأة لتبعث بخرقٍ من دمها حتى تلقى في المسجد، فلما قرأ قيصر كتاب رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام قرأه على بَطَارقة الرُّوم ببيت المقدس ثم قال لهم: ويلكم ما ترون وقد أَخربتم هذا البيت ـ أو هذا المسجد ـ واتخذتموه مزبلة؟ توبوا مما صنعتم وإلا قتلتم عليه كما قتل[1] بنو إسرائيل على دم يَحْيَى بن زَكَريا، فأخذوا في كَنْسِه وهو يومئذٍ مَزْبلة، وقد حاذت مِحْراب داود، فما كنسوا إلا الثلث، حتى قدم المسلمون، وحضر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فَتْحَهُ، ووليَ كَنْسَهُ بنفسه وبمن معه من المسلمين[2].

(١) في (ك) و(ب): اقتتلت، والمثبت من (ط)، وانظر قصة يحيى الآتية ومقتله.

(٢) «فضائل القدس» ص ١٠٦، ١٠٧ـ١٠٨، ١٠٩. وأخرج حديث حذيفة الطبري في تفسيره ١٥/ ٤٥٧ـ٤٥٨ (دار هجر)، قال ابن كثير: وهو حديث موضوع لا محالة. وسلف قريباً.